المتنبي- الشارع الذي ظل عراقيا

باعة كتب متجولون ومروجو ثقافة سرية

(٢-٣)

حتى عام (٢٠٠٢) كان في شارع المتنبي عشرات من باعة الكتب (المتجولين)، معظمهم من حملة (البكالوريوس) وعدد منهم حاصلون على (الماجستير) واثنان أو ثلاثة حصلوا على (الدكتوراه)، هذا فضلاً عن عدد ليس قليلاً منهم يواصلون تعليمهم الجامعي، وآخرين يحضرون لشهادتي (الماجستير والدكتوراه).

تحقيق/كريم الشامي

بينما في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات (يقول السيد فاضل شريف - وهو بائع كتب منذ ذلك الوقت) كان في هذا الشارع خمسة أو ستة باعة كتب (متجولين) جميعهم لا يقرأون ولا يكتبون! وهنا، أقف، أحاول أن أفهم معنى هاتين الكلمتين فهل يعني ذلك أنهم لم يكنوا يطالعون الكتب، ولا يمارسون الكتابة؟

. ولكن السيد (فاضل) أسرع مصححاً فهمي حين أكد: إنهم (أميون)!!. أليس هذا أمراً عجيباً؟!، كيف يمارس امرؤ مهنة ما وهو لا يجيد أهم مفصل في مهنته؟ كيف لي أن اصدق ذلك؟. غير أن الأستاذ (صباح أبو سوران - وهو مدرس متقاعد وبائع كتب) قال لي: إن واحداً من هؤلاء كان يدعى (جاسم العطواني رحمه الله) وكان يفضل التعامل بالكتب المطبوعة باللغات الاجنبية، ولقد رأيته يشتري كمية كبيرة من هذه الكتب، بعد أخذ وعطاء، بخمسين ديناراً فقط، ويبدو أن هذا الرجل كان معروفاً في شارع المتنبي وهذا ما أوضحه السيد (يوسف جوحي - بائع كتب) وأضاف: إن الجميع كانوا يعرفونه ويقدرون مكانته بينهم، كان يتعرف على الكتاب من لونه أحياناً، وأحياناً أخرى من التفاصيل الداخلية للكتاب وخاصة تلك الكتب التي تعنى بالطب والهندسة، ليس هذا الرجل وحده يقول (فاضل شريف) بل كان معه الحاج شريف وهو والدي رحمه الله، وكنت أعمل معه منذ كنت صغيراً، وكذلك السيد (هاني) والسيد (كاظم الجلبي) اضافة إلى (أحمد كاظمية) المعروف بـ (أحمد ابو المزاد) وقد كان يتوسط بين البائع وبين المشتري، وكان المشتري في معظم الحالات صاحب مكتبة.

خجل ومزاد وجرائد سرية

.. في ذلك الوقت، لم يكن من السهل على امرئ بيع كتبه الخاصة، فقد يكون ذلك مدعاة للاحراج والخجل وكثير من الذين صادفتهم، يقول (فاضل شريف) يعتقدون أن الكتب تشترى ولا تباع، مما يضطرهم بالتالي إلى اللجوء إلى (أحمد كاظمية) فيقوم هذا الاخير بعرض هذه الكتب على اكبر عدد من المكتبات، ومن ثم يبيعها لمن يدفع اكثر، وكان أميناً في عدم اذاعة اسم البائع إذ من الممكن أن يكون البائع اسماً معروفاً بين الناس، وكان رحمه الله، يقبل بالأجر الذي يعطى له لقاء عمله هذا. ولقد كان الواحد من هؤلاء يعتبر كتبه الخاصة جزءاً من خصوصياته وهو يرى أن بيعها أمر في غاية الاحراج. لقد كان الباعة (المتجولون) يمارسون بيع الكتب (يضيف السيد فاضل) بعد الظهيرة حين تنتهي الحركة في شارع المتنبي، في اماكن متفرقة من بغداد، فمنهم من كان، يتجول على الحانات في منطقة الباب الشرقي ومنطقة ابي نواس، وآخر يدور في المقاهي، وآخر على زبائنه في محال عملهم الخاصة، وربما كان البعض ينتظرونهم بشغف، وعادة ما يكونوا قد اوصوا على كتاب أو مجلة ما.. أما السيد (صبري حنا دانيال - وهو رجل تعدى الستين من عمره، وكان يملك مطعماً صغيراً في منطقة (السعدون)، فقد اكد لي: إنه قد تعرف على واحداً من هؤلاء الباعة، ولكنه مع الاسف لا يتذكر اسمه، ويضيف: إن هذا البائع - الذي وصفه بالشجاع - لم يكن يبيع الكتب والمجلات فقط، بل ينقل بعض النشرات والجرائد السرية المعارضة للنظام المباد، وإنه لم يكن ليأخذ منه مبلغ عشائه الذي كان يتناوله في مطعمه، وإن كان مبلغاً زهيداً، تقديراً لعمله هذا.

"أما السيد (هادي سويسريه - رجل مسن، كان يعمل مصلحاً للساعات في شارع الرشيد) فقد ذهب إلى ابعد من ذلك في قوله، إنه يعرف بائع كتب متجول يعمل صباحاً في سوق السراي عام ١٩٧٩ ولاحقاً - لا يريد ذكر اسمه الآن - كان يقدم خدمة خطيرة، فيقوم بنقل اوراق ومنشورات معادية للسلطة من شخص لآخر دون اي مقابل مادي، ورجال (الامن) يعرفونه، وهم لا يكترثون له ابداً لسببين اثنين، أولهما (يقول العم هادي) إنه يبيع مجلات (نسائية) مصورة، ومجلات أزياء، وثانيهما - وهو الاهم - إنه لم يكن ليقرأ أو يكتب أبداً.

معارضون سياسيون في شارع المتنبي

قد لا يعرف البعض، ان شارع المتنبي كان ملتقى لعدد غير قليل من المعارضين العراقيين، وكان هؤلاء (يقول السيد عبد الواحد شبل جار الله - بائع كتب - بكالوريوس فنون) يجدون هنا فرصة للحوار وتداول الاوضاع السياسية.. كانوا، حقيقة، يتمتعون بثقافة عميقة ورصينة، ويتحلون بحس وطني راقٍ، وكنت التقي بعضهم، وهم من التيار الاسلامي، واتبادل معهم الاراء والافكار. أما السيد (فاضل شريف) فهو يرى غير ذلك، فقد اكتشف - من خلال الاستماع الدائم لهم - بان هؤلاء السياسيين المتحابين جداً والذين يمنحون بعضهم البعض ثقة عظيمة - في ظل نظام بوليسي شرس - كانوا مختلفين في ارائهم السياسية تبعاً لاختلاف التيارات التي يناصرونها أو ينتمون اليها. أما السيد (ابو زيدون، المهتم بتاريخ العراق) فيشير إلى قلق هؤلاء الكبير بشأن وحدة العراق ومستقبله السياسي، ولقد وجد إن بعضهم قد تأثر إلى حد بعيد بطروحات غربية كانت قد رجحت احتمال تقسيم العراق بعد سقوط الدكتاتورية فيه، وغالباً ما يستندون إلى اشارات وردت في كتاب صدر في التسعينيات بعنوان (هل يبقى العراق موحداً بعد عام ٢٠٠٢).

ويؤكد السيد (عبد الواحد) على دورهم الكبير في قضية ثقافية مهمة، فهؤلاء المعارضون هم أول من روج ثقافة الاستنساخ المنوعة، حيث كانوا يحصلون على الكتب ويقومون باستنساخها وتوزيعها في شارع المتنبي، مما سهل، بالتالي، حصول المثقفين وعموم القراء على مصادر مهمة ومتنوعة، وباسعار مناسبة جداً خاصة إن المثقفين العراقيين قد مروا بايام سود قاسية، كان الحصول فيها على المال أمراً صعباً للغاية، إن لم يكن مستحيلاً.

أول هوية من نوعها في العراق

أصبح أمر باعة الكتب المتجولين - الخمسة أو الستة - يقلق رجال الأمن في بغداد، فبدأوا أولاً بمضايقتهم، فطلبوا من (امانة بغداد) منعهم ومطاردتهم بحجة عدم شرعية عملهم قانوناً لانهم لم يجازوا من قبل السلطات المختصة، فقام واحد منهم بمراجعة شعبة العلاقات في مديرية الامن العام في محاولة لاستحصال ترخيص يخوله ممارسة مهنة - بائع كتب متجول - ولكنهم استخدموا معه طريقة خبيثة ولكنها ذكية، فمع إنهم يعلمون بانه لا يقرأ ولا يكتب، سألوه عما إذا كان يجيد القراءة والكتابة أم لا.؟ فاجابهم بـ (لا - طبعاً) فابلغوه بان القراءة والكتابة شرط اساس في اجازة مثل هذه المهنة، فعاد خائباً، ولكنه متفائل بسبب إن ولده (فاضل) يستطيع أن يحصل على هذه الاجازه لانه حين ذاك، كان طالباً في الصف الرابع العام. وبعد أن قدم طلبه ارسلته (المديرية) إلى وزارة الاعلام. وبعد (روح تعالى) وافقت الوزارة وارسل إلى (محافظة بغداد) فمنحته هذه الاخيرة (هوية) بائع كتب متجول، ولقد كانت هذه الهوية التي حملت الرقم (١) بتاريخ ١٩٨٣/٤/٣٠. هي اول هوية من نوعها في العراق وفي حدود هذا التحقيق، فقد ثبت إنها منحت مرة واحدة فقط ولم يكرر منحها لاحقاً لاي من باعة الكتب.

ثابتون أم.. متجولون؟

لماذا يطلق على هؤلاء الباعة كلمة (متجولون)؟. هل هم كذلك فعلاً؟ لكن الجواب كان (كلا) - هكذا اجاب غالبية هؤلاء الباعة - واستدرك القدماء منهم: ربما كان ذلك صحيحاً قبل عام (١٩٩٠) ولكنهم اليوم ليسوا كذلك، إذ لا يوجد بينهم من يمارس هذه المهنة عبر طريقة التجوال. فهم مستقرون منذ بداية التسعينيات. ولديهم (مخازن) عادة ما توجد في الطوابق فوق الارضية من البنايات المشيدة على جانبي شارع المتنبي، واكثرهم حولوا هذه المخازن إلى مكتبات منظمة تنظيماً حسناً. مع انهم يتخذون من الارصفة والمساحات الفارغة امكنة لعرض كتبهم. وتعرض بطريقة تحترم الجهود الانسانية التي بذلت في تاليف الكتاب واخراجه، من خلال عرضها على حمالات صنعت من الخشب.

في أحدث دواوينه

ترانسترومر يحلق في كونه الخاص

اننا نجد أنفسنا في مكان يهم الزمان فيه بالإنتهاء. في مفتتح الكتاب يمتد الجسر في الفضاء المجهول. لكن ما يلبث ترانسترومر بعد ذلك أن يبدو و كأنه يفلت هذا التصور، حيث تطالعنا نحو عشرين قصيدة بمضامين متباعدة من شعر الهايكو (نمط قديم من الشعر الياباني). أنها قصيرة، حادة الأطراف، حلمية. بأحلام سوداوية و كابوسية غالبا: ذباب يخيط الظلال على الأرض، حمائم بلا وجوه أو ماعز تقضم النار تحت الشمس.

أوسا بكمان (*)

ترجمة سمير طاهر

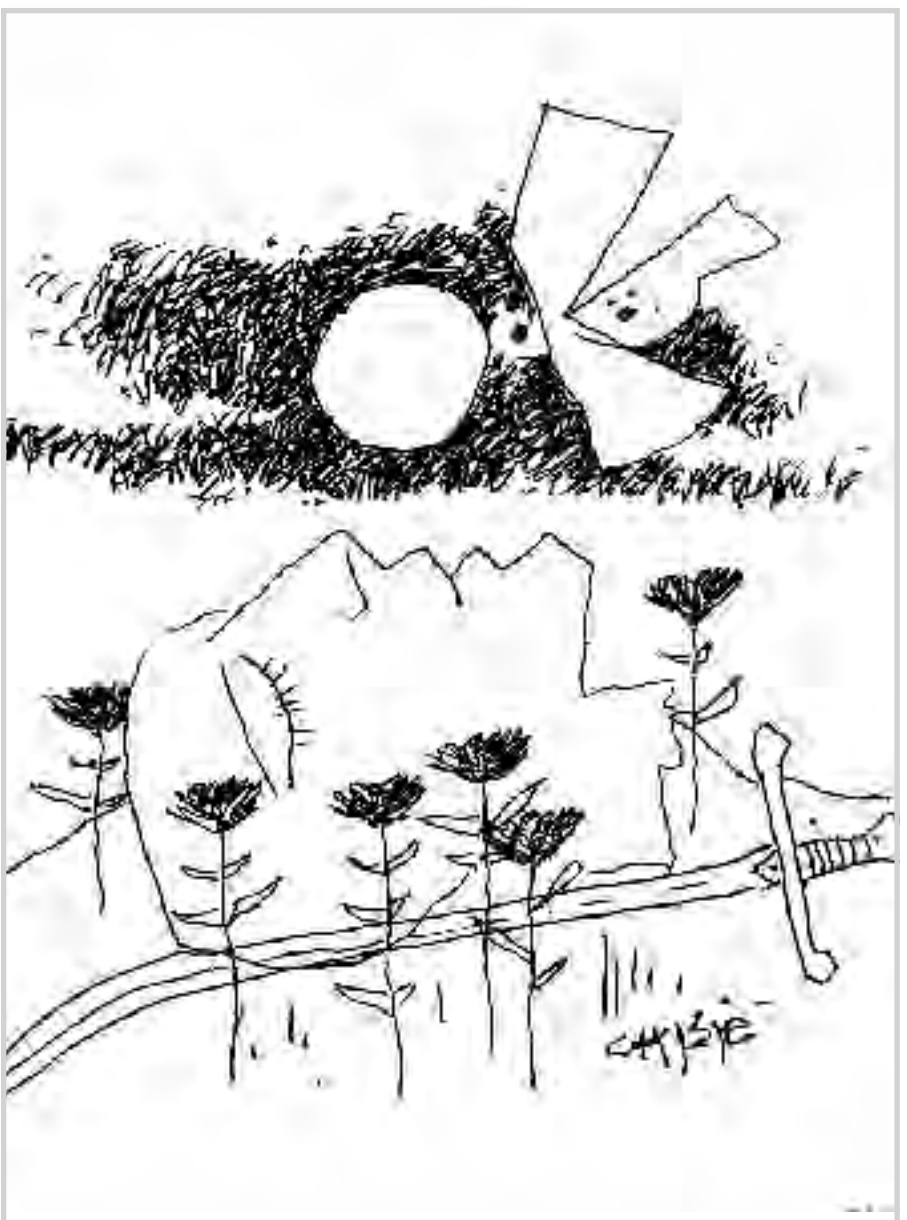

لكن عند النهاية، من القسم التاسع لكي أكون دقيقة، يبدو كما لو ان الأشعار المنتثرة تتجمع معا، و كما لو ان قاربا يستدير قدْماً و قدْماً نحو الظلام و الموت. الكتابة هنا جميلة جدا، جدا.ان المرء ينتابه على حين غرة شعور بأنه يجد نفسه في مكان مجهول بين الموت و الحياة. بدءاً من هنا لن يعود الكلام ممكنا، انما ستكون ثمة فقط رسائل قصيرة. النوارس تصرخ، البحر ينادي، حتى ليحس المرء بضرب الريح على ظهره. و هكذا يقف الشعر في النهاية هناك، بإزاء اللغز الكبير.

أما الخاتمة فتشتغل كما لو انها تقريباً تجربة الإشراف على الموت، حيث يتراءى للقارئ أنه يرى مشاهد قصيرة تترى من خارج المتن. ففي سرعة مذهلة يعبر للمرة الأخيرة رفاق الطريق الميتون، أرصفة المحطات،الأحلام، الوجوه غير الحقيقية. انها خاتمة مدهشة. " انه لمحَرُر من الأفكار و المشاعر. و هذا عائد - من بين أشياء أخرى - الى كونه من الصعب التعرف على صوته لأول وهلة " ، كما كتبت ذات مرة الشاعرة و الكاتبة كريستينا لوغن حول ترانسترومر، و أضافت: " انه مفتقد لطابع خاص به، بنفس الطريقة التي تفتقد فيها النار طابعا خاصا بها. اننا نمضي في لغته أحرارا " . الآن فقط أعرف بقدر كاف ما تعنيه. ففي هذه الذات الشعرية المخفية يغدو ممكنا للقارئ أن يأخذ مكانه حقا. و إنه لمن الغريب كليا ان نرى السهولة التي تغدو فيها الأنا الشعرية شخصية و لكن في الوقت ذاته مكثفة، بالشكل الذي نراه في الدقائق الأخيرة من الكتاب. " إصمد أيها العندليب! خارج العمق تمضي الأشياء - أما نحن فمتنكرون " ، هكذا يكتب. لقد آن الأوان لأن أعود الى كتابه الأول " ١٧ قصيدة " الذي كرسه شاعرا ، و أن أسافر معه للمرة الأولى.

(*)ولدت أوسا بكمان سنة ١٩٦١،ناقدة أدبية في جريدة داغنس نيهيتر السويدية.مؤخراً حصل كتابها "أنا نفسي بيت من ضوء" عن الجيل الجديد من الشاعرات السويديات، على جائزة مرموقة.

(١) كاتارينا فروستنسون مولودة في ١٩٥٣ في العاصمة ستوكهولم. شاعرة و ناثرة، و مترجمة لعدة كتب عن الفرنسية . للمدينة مكان و طابع متميزين في شعرها . في ١٩٩٢ أختيرت عضوا في الأكاديمية السويدية.

الكتاب: اللغز الكبير - شعر
المؤلف: توماس ترانسترومر
الناشر: ألبرت بونيرس - ستوكهولم
تاريخ النشر: مارس (آذار) ٢٠٠٤

الجنازات تأتي
تزدحم أكثر و أكثر
كلافتات الطرق
عند الإقتراب من مدينة
نظرات آلاف الناس
في بلاد الظلال الطويلة هذه
جسر يبني نفسه
ببطء
أماما في الفضاء.

توماس ترانسترومر يحلق في كونه الخاص عاليا فوق الشعر السويدي جنبا الى جنب مع جوزيف برودسكي، روبرت بلي، سيامونس هياني و بقية النجوم الكبيرة . لقد أعطانا صورا محمولة على بساطة مباشرة بحيث انها لم تدخل في الشعر السويدي وحده و انما في وجداننا كسويديين:

"أعزف هايدن بعد يوم أسود/ و أحس دفئا بسيطا في اليدين " ، " ظِلٌ يسحب زحافته بين البيوت " ، " أضاء الثلج و كل الأعباء تخففت - الكيلو غرام وَزَنَ ٧٠٠ غرام/ ليس أكثر " أو، أحد المقاطع المفضلة عندي: " الآن يتسلل الغروب مثل ثعلب فوق هذه البلاد،/ يشعل العشب في لحظة واحدة".

مع ذلك لم يكن توماس ترانسترومر أبداً شاعر"ي" المفضل بمعنى الكلمة. ان شعره جميل و مصوغ بعناية، بيد اني لم أكن مهتمة به. ليس الى الحد الذي يجعل المرء يكرس لياليه و أيامه له، و يجد نفسه لزاما عليه أن يعود اليه مرات و مرات. فحين تكون قارئا للشعر في الثمانينيات، بلغته الموجهة فلن تجد الأمر سهلا إزاء لغة ترانسترومر المرنة . فاللغة لديه لاشخصية فيما الصور شخصية. كما لن تجد سهولة إزاء الذات الشعرية المنخفضة النغم و المتحفظة التي تشبه مسافرا أشيب يرحل عبر سويد أواخرالقرن العشرين. انه ينظر الى محيطه على الدوام من مسافة. الناس يُتأمّلون عبر نوافذ القطارات، من السيارات، على أرصفة المحطات.

حين أعدت الآن قراءة الدواوين رأيت كيف ان وصفه للسويد يذكّر ببواكير شعر المدينة لدى كاتارينا فروستنسون (١) في الثمانينيات. فهنا نفس الشعور بفقدان الذاكرة، بأنك تجد نفسك في بلد بلا تأريخ. فالإثنان، اللذان غالبا ما يوصفان كمتضادين، متشابهان من وجوه عدة.

و الآن يصدر ديوانه الجديد " اللغز الكبير " . انه الكتاب الثالث الذي يصدره بعد اصابته بجلطة الدماغ قبل أربعة عشر عاما. انه يكتب، لكنه يكتب بإجهاد كبير. في ١٩٩٦ جاء ديوانه " جندول الحزن " بسطور من قبيل: " كل ما أريد قوله/ يومض خارج متناول يدي/ كالفضة/ عند مُراب " . في الكتاب الجديد، التشكيل أقل، النغمة مُخمَدة، السطور أقل عددا.قد عبر ترانسترومر الى عالم صوري أكثر تنميطاً حيث تقلّ الصور المتزامنة.